

أضواء البيان

@ 263 @ بدليل قوله تعالى : { لَّيْسَ عَلَيَّ حَرْجٌ وَلَا عَلَيَّ الْآثَرُ } وقوله جل وعلا : { لَّيْسَ عَلَيَّ الضُّعْفَاءُ وَلَا عَلَيَّ الْمُرُوضَى وَلَا عَلَيَّ الْمَذِينِ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَيَّ الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ } وقوله : { بَأْسَ نَزَّهَتُهُمْ طُلُمُوهَا } الباء فيه سببية وهي من حروف التعليل ، كما تقرر في مسلك النص الظاهر من مسالك العلة . وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد كما قال به جماعات من العلماء ، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه ولكن قد جاءت آيات أخر دالة على أحكام أخر زائدة على مطلق الإذن فهي مبينة عدم الاقتصار ، على الإذن كما هو ظاهر هذه الآية . وقد قالت جماعة من أهل العلم : إن الله تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع ، إذا أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس كان تشريعه على سبيل التدرج ، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة ، على الذين كلفوا به قالوا فمن ذلك الجهاد ، فإنه أمر شاق على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت ، لأن القتال مع العدو الكافر القوي من أعظم أسباب الموت عادة ، وإن كان الأجل محدوداً عند الله تعالى كما قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنٍ } كَتَبَ بَأْسَ الْمُؤْمِنِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ { ومع تعريض النفوس فيه لأعظم أسباب الموت ، فإنه ينفق فيه الممل أيضاً كما قال تعالى : { وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } قالوا : ولما كان الجهاد فيه هذا من المشقة ، وأراد الله تشريعه شرعه تدرجاً ، فأذن فيه أولاً من غير إيجاب بقوله : { أُوذِينَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْسَ نَزَّهَتُهُمْ طُلُمُوهَا } . ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه ، أوجب عليهم فقال : من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله : { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا } . وهذا تدرج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب ، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى : { فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ }

فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواْ مِنْهُمْ وَٱحْصُرُواْ
وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ { وَقَالَ تِلْكَ ءَآيَاتُ ٱلْمُشْرِكِينَ
كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً { وَقَوْلُهُ